بحث في كلمة كتاب *

محمد علي مهدوي‌راد

جامعة «تربيت مدرّس»

«عليكم بكتاب الله إنه الحبل المتين و النور المبين...»

الإمام علي (ع)

يرى بعض العلماء و المعنيين بالدراسات القرآنية أن ألفاظا مثل «القرآن» و «الفرقان» و «الكتاب» و بعض «التنزيل» هي اسماء للقرآن و ما بقي من صفات القرآن و مميزاته. في مقالاتنا السابقة تكلمنا على لفظتي «القرآن» و «الفرقان» و في هذه المقالة نتناول كلمة «الكتاب» بالبحث:

«الكتاب» في كتب الغة

الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول: «كتب بمعنى خرز، و الكُتْبة هي الخرزه التي يحاط بها جانبا فم الجلد لأنها تجمع جانبي المخروز.[1]»

www.noormags.com

و كتب أحمد بن فارس في توضيح هذا المعنى يقول: «الكاف و التاء و الباء، أصل صحيح واحد يدل على جمع شئ إلى شيء، من ذلك الكتاب و الكتابة... و الكُتْبة الخرزة، و إنما سميت بذلك لجمعها المخروز.[٢]»

و في معنى «خرز» يقول: «الخاء الراء و الزاء يدل على جمع الشيء إلى الشيء وضمه اليه، فمنه خرز الجلد و هو معروف...[٣]»

و الشيخ أبو الفتوح الرازي، بعد أن يبين ورود الكلمة في القرآن في مواضع متعددة، يشير إلى المعنى اللغوى للكلمة، فيقول:

«أصله الجمع، من قولهم: كتبت البغلة، إذا جمعت بين شفريها بحلقة. و يقال للجيش «كتيبة» لأنه مجتمع الجند.[٤]»

و يشير ابن منظور إلى سعة استعمالات الكلمة، و من ذلك قوله: «كتبت السقاءَ و المزادة و القربة» أي إنه خاط افواهها بحيث لم ينسكب منها شيء. و «أكتبت القربة: شددتها بالوكاء» و «كتب بمعنى الجمع. تقول: «كتبتُ البغلة إذا جمعت شفريها بحلقة أوسير، و «كتبة» تجمع قوى الجيش، و «تكتّب الخيل» أي إن الفرسان تجمعوا.[٥]»

كذلك أورد الزبيدى كل هذا الذي نقلناه، ثم يشير إلى استعمالات هذه الكلمات و الكتابات و الكتب.[٦]

و بناء على ذلك يكون المعنى الأصلي و اللغوي للكتاب هو الجمع و التجميع، و هذا ما ينبغى العثور عليه في التأمل في الاستعمالات الأخرى.

«الكتاب» عند المفسرين و الباحثين

إن ما سبق قوله يكرره المفسرون و الباحثون في القرآن عند بحث هذه الكلمة، ثم يشرحون كيفية استعمالها في القرآن و في الكتب و الكتابات. يقول محمد بن جرير الطبري:

«كتاب مصدر كتب كتاباً، مثل قيام و حساب، و مصدراهما «قام قياماً» و «حسب

www.noormags.com

حساباً» و هو ما يكتبه الكاتب من حروف الهجاء سواء أكانت متصلة أم منفصلة، و يسمى هذا المكتوب «كتاباً»[٧].

و يكرر الشيخ الطوسي ما قاله الطبري، مضيفاً إليه بعضاً مما أوردناه من القواميس اللغوية.[٨]

يقول أمين الإسلام الطبرسي:

«الكتاب مصدر بمعنى مكتوب، مثل «الحساب» و معناه الأصلي الجمع.[٩]»

ثم يستشهد بما أوردناه من قواميس اللغة. و في موضع آخر يقول:

«الكتاب صفحة كتبت فيها حروف، و هذه الحروف مؤلفة تدل على معان و مفاهيم.[١٠]»

برهان الدين الزركشي، بعد أن يقول إن الكتاب يطلق على المكتوب مجازاً، و يقول إن أصل معنى الكتابة هو الجمع، أي جمع الحروف بعضها إلى بعض. يقول:

«الكتابة هي الحركات التي تقوم بكتابة الكاتب، و هي خطوط و سطور اعتبارية مؤلفة للدلالة على المعنى الذي يريده الكاتب. و قد يزل الكاتب أحياناً فتكون كتابته غير دالة على شيء.[١١]»

و الحاج الشيخ حسن المصطفوي، بعد أن يورد ما تذكره قواميس اللغة عن الكتاب، يورد الخلاصة التالية التي نوجزها فيما يلي:

«المعنى الأصلي لمادة كتب هو تنظيم النيّات في الخارج بالوسيلة المناسبة، كتنظيم العلوم و العقائد القلبية... بالحروف و الكلمات، و هو معنى متداول ... و مثله تنظيم الزاد و غيره و خرز الجلد و إعادته إلى حالته الأولى... و مثل هذا المعنى في الحكم و التحكيم... لأنها جميعاً أشبه بتنظيم القصد و النية عند تسطيرها بالحروف و الكلمات و الجمل... و في أصل المادة شرطان هما الإظهار و ضم الشيء إلى الشيء...[١٢]»

ثم يبين هذه المعاني بالنسبة إلى معنى المادة الأصلي في الآيات القرآنية. إن ما يذكره المصطفوي لتسويغ المواضع المختلفة لاستعمال «كتاب» و مادة «ك، ت، ب» مفيد،

www.noormags.com

ولكن هل يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة بتلخيص مواضع استعمال هذه المادة في الأدب العربي حسبما وردت في كتب اللغة؟ يبدو إن الأمر كذلك، إذ إن الراغب الإصفهاني في كتابة القيم «المفردات» يشير إلى هذا المعنى أيضا، فهو، بعد أن يقول إن أصل المادة هو: «ضم أديم إلى أديم بالخياطة، و يقال كتبت السقاء... و في التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض باللفظ ...» يواصل قوله:

«فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد للآخر ... و الكتاب في الأصل مصدر ثم سمي المكتوب فيه كتاباً، و الكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها... و يعبَّر عن الاثبات و التقدير و الإيجاب و الفرض و العزم بالكتابة، و وجه ذلك أن الشيء يُراد، ثم يقال، ثم يكتب، فالإرادة مبدأ و الكتابة منتهى، ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى، قال: (كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا و رُسُلي.)[١٣]»

و آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري يرى أيضا أن مفاهيم «الثبوت» و «الوجوب» ملحوظة في مادة «كتب». و هو أيضا، بعد أن يشير إلى المعاني المذكورة في كتب اللغة، يقول:

«الظاهر إن مادة «كَتَبَ» تعني الثبوت و الوجوب، و قد تعني «الجمع» و «مكتوب» يرجع إلى ذلك ايضا.[١٤]»

على كل حال، إن كلمة كتاب بمعنى مكتوب معروفة تماماً في الأدب العربي و الجاهلي، و هذا هو المعنى الذي استعمل به في الجاهلية أيضا. و قد بين الدكتور جواد علي معنى «الكتاب» بياناً دقيقاً و أشار إلى مواضع استعماله في الشعر الجاهلي، من ذلك اشارته إلى أن شاعراً مسيحياً قد استعمل كلمة «الكتاب» للإشارة إلى «الانجيل». و قد سبق لنا القول أن المصطفوي، الباحث القرآني، اشار إلى أن فى لفظ «الكتاب» معنى «الإظهار و الإعلان» أيضا. و هذا ما ذكره الدكتور جواد علي أيضاً، بقوله إن «كتاب» في الأدب الجاهلى استعمل بمعنى الإظهار و الإعلان.[١٥]

www.noormags.com

من كل ما ذكرناه يمكن أن نستنتج أن مادة «كتاب» تعني في الأصل: الجمع. الإثبات، خياطة الأطراف و التنظيم و الإظهار و الإعلان.

«الكتاب في القرآن»

وردت كلمة «الكتاب» نحواً من مئتين و ثلاثين مرة في القرآن‌الكريم، في ٤٩ مرة منها المقصود من «الكتاب» هو «القرآن» و في مواضع أخرى يقصد به التورات، و الإنجيل، صحيفة الأعمال، و الشيء المكتوب، و اللوح المحفوظ و غيرها.[١٦]

و قد وردت كلمة الكتاب لأول مرة بحسب النزول في سورة القلم، و هي السورة الثانية.[١٧]

(أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فيهِ تَدْرُسُون)[١٨]

من الواضح إن كلمة «كتاب» في هذه الآية تعني «مكتوب»، فالله تعالى يبين عدم تساوي المسلمين و المجرمين، و يدعو ضمائر المشركين‌إلى أن يحكموا كيف يمكن أن يتساوى الآثم مع المسلم القائم بالحق: مالكم؟كيف تحكمون؟ أهو عقلكم الذي يرشدكم إلى مثل هذا الحكم؟ ثم كأن القرآن يؤكد أن العقل لايمكن أن يحكم بذلك، فإذا لم‌يكن الأمر كذلك، فهل لديكم شيء مكتوب يشير إلى ذلك و يقول بأن المجرم و المؤمن سواء.؟[١٩]

ثم تأتي لفظة «الكتاب» في سورة «المدثر» الرابعة في النزول. و الآية التي ترد فيها الكلمة هي أطول آية في السورة:

(وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ... [٢٠])

لاشك في أن لفظتي «الكتاب» في هذه الآية تعنيان التوراة و الانجيل، و أهل الكتاب هم اليهود و النصارى.[٢١] و يقول بعض المفسرين إن المقصود هم اليهود.[٢٢] و في بعض

www.noormags.com

الروايات إن الآية جواب سؤال الذين سألوا عن عدد حراس النار. [٢٣] و هكذا نجد أن هذه هي المرة الثالثة التي ترد لفظة «الكتاب» في القرآن دون أن تكون اسماً أو وصفاً للقرآن نفسه، بل القصد هو الكتب السابقة عليه.

من المعلوم إن دارسي القرآن يقولون إن الآيات المكية، من حيث البناء و الاسلوب، آيات قصيرة و ذوات لحن، و الآيات المدنية، من حيث المحتوى، تتناول المنافقين و تبين صفاتهم. لذلك فالمفسرون يتساءلون عن هذه الآية أليست مدنية بالنظر لطولها و ما فيها من كلام على المنافقين و صفاتهم؟ آية مدنية في سورة مكية [٢٤]؟ هذا السؤال أورده الزمخشري و يجيب عنه بقوله إن معنى الآية هو أن المنافقين الذين سيظهرون في المدينة سيقولون... [٢٥] ولكن (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ليست تصف المنافقين. كذلك ليس المراد من النفاق و المنافقين في هذه الآية الإشارة إلى حوادث النزاع مع رسول‌الله (ص) في خضم نشر الإسلام، و لا هو كذلك إخفاء للإيمان و الشكوك و التغيرات الداخلية في مكة، و لا هو يعني أن «النفاق» قد تشكل في المدينة فحسب. و بناء على ذلك، فالآية، مثل سائر آيات السورة، مكية، خاصة إذا لاحظنا سياق الآيات التي قبلها و التي بعدها و ما فيها من التناسق و ترابط المحتوى، و ما يغلب على الآيات المكية من القصر و اللحن، لا عموميتها و ديموميتها. إذن يمكن الجزم بأن السورة كلها مكية و ليس منها آية مدنية. [٢٦]

ثم ترد لفظة «كتاب» في سورة «ق» و هي السورة الرابعة و الثلاثون:

(قَدْ عَلِمْنا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ) [٢٧]

يتحدث القرآن عن عنادهم و تكبرهم و أنهم لا يلتفتون إلى الله و القرآن و معارفه، بل كانوا يقولون، من باب الإنكار و التكذيب: كيف يمكن لنا أن نعود إلى الحياة بعد أن نصبح تراباً؟ هذا مستحيل!

والجواب عن ذلك هو أنه إذا كانت الإستحالة في كون العظام تنخر و تتلاشى، فمن ذا الذي يجمعها و من ذا الذي يعرف عنها شيئاً؟ فعليهم أن يعلموا أن الله واسع عليم و يعرف

www.noormags.com

كل هذه الذرات و يجمعها إذا شاء، كما أن الأقوال والأفعال محفوظة لديه في كتاب.

المقصود من «الكتاب» في هذه الآية هو «اللوح المحفوظ» الذي يضم ما كان و كائن و يكون.[٢٨]

و قد استعملت لفظة «الكتاب» بمعنى القرآن لأول مرة في الآية الثانية من سورة الأعراف:

(كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَبِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمؤْمِنينِ[٢٩])

إن اللحن العام في هذه السورة يرمي إلى إظهار البناء العقائدي، و التفسير الدقيق للتوحيد، و مواجهة التوحيد و أصحابه مع الشرك و أصحابه، و تقرير رسالة رسل‌الله، و تثبيت الوحي و الرسالة، و بخاصة رسالة رسول‌الله (ص). و لذلك نجد السورة تبدأ بآيات تتحدث عن الكتاب و عن آخر مجموعة من الوحي، و الشروع في تقرير عما مضى، و الآن تبدأ هذه الآية الحديث عن «كتاب» هو آخر كتاب من الكتب السابقة و أنه إكمال لأهدافها و محتواها بما فيه من قوانين و أوامر، مجموعة من المعارف الهادمة البانية ـ هادمه لكل مالا يتسق مع مقام الإنسان الرفيع و لاينسجم مع كرامته، ثم لتقيم على انقاض ذلك بناء مكينا من الأفكار و العقائد التي تخلق العزة و تقضي على الذلة. إن مجموعة هذا شأنها و أهدافاً هذه تطلعاتها لاشك ستواجه مشكلات و صعوبات جمة، حتى أن الله تعالى ينبه رسوله علي ذلك: (فلايَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) ثم يعرض تجليات لثبات الرسل و كفاحهم مع الشرك لكي يزيد من قوة قلوب المؤمنين و ثبات أقدامهم.[٣٠]

يرد «الكتاب» ست مرات اخرى في هذه السورة. في الآية ٣٧ يدور الكلام على نعم الله المختلفة التي أسبغها تعالى على عباده. و الآية ٥٢ تتحدث عن‌القرآن و عن لحسنه الهادئ و هدايته الواسعة، و أن «كتاب» الله رحمة، و أن خسارة الكفار هي نتيجة عنادهم و تكبرهم. و في الآيتين ١٦٩ و ١٧٠ حول التوراة يدور الكلام على الذين و رثوا «الكتاب» دون أن يقيموا له و زناً، و هم اليهود الذين شغفوا بمتع الحياة الدنيا السريعة

www.noormags.com

الزوال، و بالمتاجرة بمعارفه و حقائقه لقاء بهارج الدنيا و زينتها و على الميثاق الذي أوثقه معهم كتابهم الإلهي على أن يسيروا على الحق و أن لايقولوا على الله غيرالحق، مؤكداً أنهم إذا تمسكوا بكتاب الله و لم يشيحوا بوجوههم عن معارفه و عملوا بما جاء فيه فإنهم سوف ينالون الثواب الإلهي الجزيل. و الآية ١٩٦ التي تخص القرآن تتحدث عن مواجهة رسول‌الله (ص) مع المشركين و عن الأصنام التي يعبدونها دون أن تنفعهم في شيء و بعد أن يفضح، بعباراته النارية الهادية الموقظة، عقائدهم التي لا أساس لها، يكشف لهم كيف أن أصنامهم في عرصة الحياة لاتأثير لها و أنها فارغة خاوية و أنهم حتى إذا دعوا أصحابهم و شركاءهم فلن يضروه شيئاً، و يختم الكلام بالقول:

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحينَ)

إن سياق الآيات و أسلوب استعمال لفظة «كتاب» و المصاديق التي أشرنا إليها كلها تسير نحو الهدف النهائي و اللحن العام للسورة، كما ذكرنا. و قد تحدثنا عن استعمال «الكتاب» في سورة الأعراف بشيء من التفصيل بالنظر إلى أنها السورة الأولى التي جاءت فيها لفظة «الكتاب» بمعنى «القرآن».

يتبين مما سبق قوله أن الاستعمالات الأولى للفظة «الكتاب» في الآيات الإلهية لم تكن بمعنى «القرآن». و أن السورة التي وردت اللفظة مرات عديدة فيها ليست بمعنى «القرآن» أيضاً، و كذلك هي الحال في السور الأخرى.

و الآن إلى السؤال: «لماذا يطلق على القرآن اسم كتاب؟»

سبق القول إن الكلمة تعني لغوياً الجمع و الثبات و التراكم و الإظهار. لنر الآن، و على هذا الاساس اللغوي، لما ذا اطلقت على «القرآن». برهان الدين الزركشي يقول:

«دعي القرآن «كتاباً» لأنه جمع أنواع القصص و الآيات و الاحكام و الاخبار و المعارف بأسلوب خاص...[٣١]»

و هذا ما أشار إليه بعض المفسرين في نظرات مختلفة. من ذلك قول آية‌الله النها و ندي ما خلاصته:

www.noormags.com

«ان مناسبة اسم الكتاب مع القرآن هي ان القرآن يضم بين دفتيه كل ما جاء في الكتب [السماوية] السابقة عليه. يقول المفسرون: إن الله تعالى قد جمع كل معارف الكتب السابقة في التوراة و الإنجيل، و كل ما جاء في التوراة و الإنجيل جاء به في القرآن و الدليل على ذلك هو قول رسول‌الله (ص)»: لقد اعطيت السور الطويلة مكان التوراة، و أُعطيت المئين [السور ذات المئة آية تقريباً] و المثاني مكان الإنجيل، و قد فضلت بمفصّل القرآن [٦٨ سورة الأخيرة]...[٣٢]»

و الجدير بالذكر أنه لما كان القرآن جامعاً لكل أنواع العلوم، حسبما جاء في قوله (وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ[٣٣]) لذلك أَطلق عليه اسم الكتاب.[٣٤]

يقول صبحي الصالح، في معرض كلامه على اسماء القرآن:

«إن عنوان «الكتاب» للقرآن إشارة إلى جمعه و إعداده في سطور مكتوبة، لأن الكتابة تعني جمع الحروف و إعطاء الرسم و الشكل للألفاظ.[٣٥]»

أما الذين يعتبرون مادة «كتاب» الأصلية تعني الإثبات و الإظهار فقد قالوا في سبب إطلاق اسم الكتاب على القرآن ما ملخصه:

«بما أن القرآن مكين في جميع العوالم و جامع لجميع المعارف و الكمالات، فقد أطلق عليه اسم «الكتاب.[٣٦]» و قالوا أيضا: ان وصف القرآن بالكتاب إشارة الى تثبيت الأحكام و استقامة المفاهيم و تحقق محتواه و مضامينه في قلوب المؤمنين كما هي في الصفحات الخارجية، بحيث لايعتوره الشك و لاالتغير، و هذه الخصوصية وردت في الآيات القرآنية: (ذَلِكَ الْكِتابُ لارَيْبَ فِيهِ[٣٧])، (و إِنَّ الَّذِينَ أُو تُوالكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّه الْحَقُّ[٣٨])، (و أُنْزِلَ مَعَهُم الْكِتابُ بِالْحَقِّ) و غيرها[٣٩/٤٠]

أي إن القرآن حق و ثابت و لاينالـه التغيير ولا الزيادة ولا النقصان، و يبقى جاريا في مجرى الزمان من دون أي تبدل أو زوال أو تلاش. يقول الباحث القرآني المتعمق الدكتور عبدالله ما خلاصته:

«هذا كلام الله، سمي بالقرآن و بالكتاب لأنه يقرأ باللسان و يكتب بالقلم، و هذه

www.noormags.com

التسمية تشير إلى الحقيقة القائلة بأن كلام الله يجب أن يحفظ في الصدور كما يحفظ في قلوب الكتب، إذ إن الاعتماد على الحافظة وحدها من دون كتابة تدوّن وحدة القول من جيل الى جيل، لايكفي. كذلك الحال في الاعتماد على الكتابة من دون ملاحظة توافق حفظة القرآن المستندين إلى الأحاديث الصحيحة المتواترة، فإنه لااعتباربه. إن هذه العناية المزدوجة هي التي حفظت القرآن من انقطاع السند و من كل تبديل و تحريف.» [41]

و على هذا فالقرآن «كتاب» يجمع كل العلوم و يضم جميع التعاليم الإلهية التي قام بتبليغها الرسل، و هو ثابت لاتبديل فيه و لاتحريف.

أم الكتاب

يتضح مما سبق أن للفظة «كتاب» مصاديق عديدة في الآيات القرآنية، مثل «اللوح المحفوظ» الذي وصف في كثير من الأحاديث بأنه «كتاب»، و احيانا بلفظ «الكتاب» مجرداً من كل صفة او اضافة، مثل (مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ[42] مِنْ شَيءٍ[43]) و (أَلَم تَعْلَمْ إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الأَرْضِ إنَّ ذَلِك فِي كِتابٍ[44])

ثم وردت اللفظة مضافة أو موصوفة، مثل «كِتاب مُبين[45]» و «كِتاب مِعْلُوم[46]» و «كِتاب مَكْنُون[47]» و «أم الكتاب[48]» و «كتاب مُؤَجَّل[49]». إن ما نريد التذكيربه هنا هو أن أصل القرآن محفوظ عندالله في «أم الكتاب» كما تصرح بذلك آيات كثيرة، و أن لفظة «كتاب» مثلما أطلقت على «القرآن» أطلقت على «اللوح المحفوظ» أيضاً: (إنا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إنَّه فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ[50]). و تعقلون قد فسرت بمعنى تفكرون أو تدركون. [51]

و هكذا نجد أن الله تعالى قد أطلق على ما أوحاه إلى رسوله اسم‌الكتاب، و كذلك سماه اللوح المحفوظ بصفته أصل هذا الوحي. يقول العلامة الطباطبائي في ذلك:

«المقصود بأم الكتاب في الآية (و إنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) هو اللوح

www.noormags.com

المحفوظ، بمثلما جاء في موضع آخر (بَلْ هُوَ قُرآنٌ مجيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ[٥٢])، فاللوح المحفوظ هو أم الكتاب، باعتباره أساساً لجميع الكتب السماوية. إن «أم الكتاب» و «لدينا» كلاهما توضيح للقرآن، أي إن القرآن موجود لدينا في أم الكتاب، رفيعاً و ثابتاً بحيث إن اليد لاتصل إليه، و هو حكيم، أي إنه لم يتجزأ و لم يفصل في جمل منفردة، ولكن الله لكي يتيح للبشر الوصول اليه ليتعلم و يستفيد منه ألبسه لبوس اللغة العربية، عندئذ قال تعالى: (كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ[٥٣])[٥٤]

بناء على ذلك فإن «كتاب مكنون» و «كتاب مبين» و «كتاب معلوم» كلها كتاب واحد في أصل كتاب الوحي.

إن من بين عجائب القرآن هي الحروف المقطعة التي يبدأبها عدد من السور. و قد تكلم كثيرون على هذه الحروف و مدلولاتها و علل و رودها،[٥٥] من ذلك ملاحظات تستدعي التأمل في سبب ورودها ـ و الكلام في هذا قديم ـ كقولهم إنها اشارة إلى الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فهذه التعليمات التي لبست ذلك اللبوس السائغ من أروع صور البلاغة و الفصاحة، إنما هي قد بنيت من تلك الحروف العادية التي هي بين أيدكم: هاهي الكرة و هذا هو الميدان، فلتنسجوا على هذا المنوال إن استطعتم! و لقد فاق عدد من المختصين بالأبحاث القرآنية، مثل ابن كثير[٥٦]، و بدر الدين الزركشي[٥٧] في التنظير النظري على من سبقوهم، و قالوا إن الكثير من هذه السور يدور فيها الكلام على الوحي و القرآن و عصمته، و إن هناك علاقة و ثقى بين هذه الحروف و علة ورودها، و محتوى السور. و على رأس الذين قالوا بهذه الفكرة الباحثة القرآنية الحديدة البصر، عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) في بحث حول ذلك.[٥٨] ولكن الطريف في الأمر هو أن أكثر هذه السور متفقة على ايراد «الكتاب» بعد هذه الحروف المقطعة:

(الم ذَلِكَ الْكِتابُ لارَيْبَ فِيهِ[٥٩])

(المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ[٦٠])

(الم تَنْزِيلُ الْكِتابِ لارَيْبَ فِيهِ[٦١])

www.noormags.com

(الم اللّه لا إلَه إلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْك الْكِتابَ بِالْحَقِّ[٦٢])

(طسم تِلْك آياتُ الكِتابِ الْمُبِينِ[٦٣])

في الآيات التي ذكر فيها القرآن باسم «الكتاب» يرد أيضاً تبيان لأفضل خصائصه و أرفعها و أعمقها، مثل: الهداية، النور، الثبات، الصلابة، عدم التحريف، البيان، الرحمة، الرفعة، الحكمة و غيرذلك.

«الكتاب» في الحديث

سبق لنا القول إننا نشير في هذه المقالة إلى الأسماء التي تطلقها الآيات الكريمة على القرآن المجيد. و يجدر بنا أيضاً أن نلحظ ورود تلك الاسماء في الروايات على وجه الإجمال، إذا إن الدخول في التفاصيل يفوق طاقة استيعاب هذه السطور. في الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين (ع) يكثر ورود «كتاب» و «الكتاب» مع بيان أبعاده من حيث التعليم و الهداية و نشر الحق. من أشهر هذه الروايات هو الحديث العظيم المتواتر، حديث «الثقلين»، و هو الذي قال فيه رسول‌الله (ص):

«إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن‌تضلوا بعدي: كتاب‌الله و عترتي أهل بيتي. و إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[٦٤]»

و قد روي عن الإمام الصادق (ع) عن رسول‌الله (ص) أنه قال **«ما جاءكم عني يوافق كتاب‌الله فانا قلته. و ما جاءكم يخالف كتاب‌الله فلم أقله[٦٥]»**.

كما أن خطب الإمام علي (ع) مليئة بذكر القرآن باسم الكتاب. من ذلك قوله:

«عليكم بكتاب‌الله فانه الحبل المتين، والنور المبين، و الشفاءالنافع، والري الناقع، و العصمة للمتمسك، و النجاة للمتعلق...[٦٦]»

كان زين‌العابدين و سيد الساجدين الامام على بن الحسين (ع) عند ماينتهي من قراءة القرآن يناجي ربه مناجاة العاشقين فيقول:

«أللّهم إنك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً، و جعلته مهيمناً على كل كتاب

www.noormags.com

أنزلته، و فضلته على كل حديث قصصته...[٦٧]»

كذلك نجد في بيان العلماء و كلامهم أن كتاب‌الله هو القرآن، و حيثما ورد اسم «الكتاب» مع السنة و الحديث، فالمقصود هو القرآن. أما إذا جاء مطلقاً من دون وجود قرينة تدل على المقصود، فليس المراد هو كتاب‌الله.

يتبين مما سبق ذكره عن بداية استعمال هذه اللفظه في القرآن‌الكريم و أنواع استعمالها في الآيات و الروايات أن «الكتاب» وصف للقرآن، و ليس اسماً له، و لذلك لابد من تأييد قول بعض من العلماء القائلين:

«بقليل من التأمل في مواضع استعمال «كتاب» في القرآن‌الكريم ندرك أن هذه الكلمة ليست اسماً للقرآن بل هي وصف له.[٦٨]»

اذن فلفظة «كتاب» وصف لهذه المجموعة من الوحي الإلهي، القرآن‌الكريم، و هذا يدل على أنه جامع لكل الحقائق و أن تعاليمه ثابتة و خالدة.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هل «كتاب» كلمة دخيلة؟

يرى بعض المستشرقين أن كلمة «كتاب» من الألفاظ الدخيله. يقول (آرثر جفري):

«أعتقد أن هذه الكلمة قد تطورت في اللغة السامية الشمالية، و استعملت فى السامية الجنوبية بصفة استعارة.»

و يقتبس من مستشرقين آخرين قولاً لهم:

«لاشك في أن كلمة «كتاب» العربية مأخوذة من الآرامية، و من ثم اشتق، منها الفعل و صيغ أخرى.[٦٩]»

و يؤيد الدكتور صبحى الصالح هذا الرأي و يقول:

«إن لكلتا اللفظتين [القرآن و الكتاب] جذوراً آرامية، إذا إن «كتاب» تعني في الآرامية تشكيل الحروف...[٧٠]»

لاريب في أن كلام صبحى الصالح يستند إلى تحقيقات المستشرقين، ولكن ما يكتبه

www.noormags.com

المستشرقون لايستند إلى دليل ثابت ولا إلى تحليل قويم. إن المصادر الإسلامية و أبحاث المحققين الإسلاميين الذين قاموا بإحصاء الألفاظ الدخيلة، أو، بكلمة اخرى، المعرّبة، لاتضم كلمة «كتاب[٧١]» و في البحث الذي كتبه باحث عراقي ضليع في لفظة «كتاب» لم يشر مطلقاً إلى أنها من الكلمات الدخيلة، بل عدها من الكلمات العربية المعروفة في الشعر الجاهلي و نثره و أدبه.[٧٢] و بناء على ذلك ينبغي اعتبار «الكتاب» كلمة عربية أصيلة تطورت في الأدب القرآني بمفاهيمها و لها مصاديق كثيرة.

الهوامش

* . المقال مترجم من الفارسية

١. «العين» ج ٥ ص ٣٤١

٢. «مقاييس اللغة» ج ٥ ص ١٨٥

٣. المصدر نفسه، ج ٢ ص ١٦٦

٤. «روض‌الجنان و روح الجنان في تفسير القرآن» ج ١ ص ١٠

٥. «لسان‌العرب» دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ١ ص ٢٤ و ٢٥

٦. «تاج العروس» ج ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٣

٧. «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ج ١ ص ٢٤

٨. «البيان في تفسير القرآن» ج ١ ص ١٩

٩. «مجمع‌البيان» ج ١ ص ١٤ و ٣٥.

١٠. المصدر نفسه، ج ٣ و ٤ ص ٤٢٦

١١. «البرهان في علوم القرآن» دارالمعرفة، بيروت، ج ١ ص ٣٧٣

١٢. «التحقيق في كلمات القرآن» ج ١٠ ص ٢١

١٣. «المفردات» ص ٤٢٣. «بصائر التمييز» ج ٤ ص ٣٣٢. «معجم ألفاظ القرآن‌الكريم» ج ٢

www.noormags.com

ص ٢٨٨

١٤. «مواهب الرحمن في تفسير القرآن» ج ١ ص ٦٥

١٥. «المفصل في تاريخ العرب» ج ٨ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥

١٦. «التصاريف» يحيى بن سلام، ص ١٧٢. «بصائر ذوي التمييز» ج ٤ ص ٣٣٠. أنظر البحث التحليلي القيم للعلامة الطباطبائي في «الميزان» ج ٧ ص ٢٥٢

١٧. «تفسير الحديث» ج ١ ص ١٤ و ١٤٠. «التمهيد» ج ١ ص ١٣٥

١٨. سورة القلم / ٣٧

١٩. «التبيان» ج ١٠ ص ٨٥. «الميزان» ج ١٩ ص ٣٨٣

٢٠. سورة المدثر

٢١. «جامع‌البيان» ج ٢٩ ص ١٦١ «التبيان» ج ١٠ ص ١٨١. «الجامع لأحكام القرآن» ج ١٩ ص ٨٢. «مجمع‌البيان» ج ١٠

٢٢. «التحرير و التنوير» ج ٢٩ ص ٣١٥.

٢٣. «الدر المنثور» ج ٦ ص ٤٥٦

٢٤. يتبين من الكتابات في العلوم القرآنية و الباحثين القرآنيين أنهم قد أيدوا الفكرة القائلة بوجود آيات مدنية في سور مكية، و آيات مكية في سور مدنية. ترى هل هذا الرأي صحيح؟ بيدو أن الموضوع يتطلب، في الأقل، المزيد من التأمل. و هذا ما سنتركه لفرصة أخرى. إن بعضا من الباحثين قدقبلوا بهذا الرأى قبولاً مطلقاً. أنظر «رسالةالاسلام» السنة ١٢ ص ٣٥٦.

٢٥. «الكشاف» ج ٤ ص ٦٥٢. «التحرير و التنوير» ج ٢٩ ص ٣١٧

٢٦. «الميزان» ج ٢٠ ص ٩٠. «التحرير و التنوير» ج ٢٩ ص ٢٩٢ و ٣١٥. «تفسير الحديث» ج ١ ص ١٠٤. «فتح التقدير» ج ٤ ص ٣٩٦.

٢٧. سورة (ق / ٤)

٢٨. «التبيان» ج ٩ ص ٣٥٨. «الجامع لأحكام‌القرآن» ج ١٧ ص ٤. «الميزان» ج ١٨ ص ٣٣٨

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
www.noormags.com

۲۹. سورة الأعراف / ۲

۳۰. «الميزان» ج ۸ ص ١٦. «المنير» ج ۸ ص ۱۳۳. «تفسير الحديث» ص ۲ ص ۱۱۳. «الأساس في التفسير» ج ٤ ص ۱۸۳۵. «في ظلال القرآن» ج ۳ ص ۱۲٤۳. إن توضيح سيد قطب للحن العام للسورة جميل جداً و جدير بالمطالعة.

۳۱. «البرهان» ج ۱ ص ۳۷۳. «التفسيرالمنير» ج ۱ ص ١٤ و ٧٤.

۳۲. مسند أحمد بن حنبل، ج ٥ ص ٧٨. «مجمع‌الزوائد» ج ۷ ص ۱۵۸. «دلائل النبوة» للبيهقي، ج ٥ ص ۱۵۸. أنظر أيضا توضيح «الطوال» و «المئين» و «المفصل». «البرهان» ج ۱ ص ۳٤۲. «تاريخ القرآن» راميار، ص ٥٩٥

۳۳. سوف تتناول تفسير هذه الآية و المقصود من «تبيان كل شيء» في الأعداد القادمة بصورة إجمالية

۳٤. «نفحات الرحمن» ج ۱ ص ۱۳ و ١٤. «التحرير و التنوير» ج ۱ ص ۱۷۳. «بصائر ذوي التمييز» ج ٤ ص ۳۹۲.

۳٥. «مباحث في علوم القرآن» ص ۱۷

۳٦. «مواهب‌الرحمن» ج ۱ ص ١٦٥

۳۷. سورة البقرة / ۲

۳۸. المصدر نفسه / ١٤٤

۳۹. المصدر نفسه / ۲۱۳

٤٠. «التحقيق في كلمات القرآن» ج ۱۰ ص ۲۳ «تفسير روشن» ج ۱ ص ۲٥.

٤۱. «النبأالعظيم» ص ۱۲

٤۲. سورة الانعام / ۳۸

٤۳. «جامع‌البيان» ج ٥ ص ۱۸۸. «الكشاف» ج ۲ ص ۲۱. و يحتمل أن يكون المقصود بالكتاب هو القرآن، كما أشار المفسرون إلى ذلك. «التبيان» ج ٤ ص ۱۲۸. «التفسيرالكبير» ج ۲ ص ۲۱٥. «الميزان» ج ۷ ص ۸۱. «التحرير و التنوير» ج ۷ ص ۲۱۷. و عند تفسير إطلاق

www.noormags.com

«تبيان» على القرآن سوف نتطرق إلى هذه الآية.

٤٤. سورة الحج / ٧٠، سورة الرعد / ٣٨، سورة طه / ٥٢

٤٥. سورة يونس / ٦١، سورة هود / ٦، سورة النمل / ٧٥، سورة سبأ / ٣.

٤٦. سورة الحجر / ٤

٤٧. سورة الواقعة / ٧٨

٤٨. سورة الزخرف / ٩، سورة الرعد / ٣٩

٤٩. سورة آل‌عمران / ١٤٥

٥٠. سورة الزخرف / ٣ و ٤

٥١. «كشف الأسرار» ج ٩ ص ٤٨.

٥٢. سورة البروج / ٢٢

٥٣. سورة هود / ١

٥٤. «الميزان» ج ١٨ ص ٨٤ لقد أوردنا بعضاً من كلام العلامة الطباطبائي. لمزيد من التفصيل أنظر الصفحات ٨٣ ـ ٨٥

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٥٥. إنني قائم على التحقيق في التوجيهات و التفاسير المتعلقه بهذا الموضوع و قد فصلت الكلام على ذلك. أسأل الله أن يوفقني لاعادة النظر فيه و اعداده للنشر.

٥٦. «تفسير القرآن‌الكريم» ج ١ ص ٦٨

٥٧. «البرهان» ج ١ ص ٢٥٩

٥٨. «الإعجاز البياني للقرآن‌الكريم» ص ١٤٧ و مابعدها

٥٩. سورة البقرة / ١٠٢

٦٠. سورة الأعراف / ٢

٦١. سورة السجدة / ٢

٦٢. سورة آل‌عمران / ٣

٦٣. سورة الشعراء / ٢

www.noormags.com

٦٤. حديث الثقلين أشهر من أن يحتاج إلى ذكر مصادره. إن أوسع بحث في هذا الموضوع كتبه العلامة الجليل برهان حسين الهندي في كتابه القيم «عبقات الأنوار». أنظر تلخيص ذلك و تعريبه في «نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار» الذي يتناول جزؤه الأول بالبحث سند الحديث. كذلك أنظر «المراجعات» تحقيق حسين راضي، ص ٢٨، و تتمة «المراجعات» ص ١٢.

٦٥. «الأصول من الكافي» ج ١ ص ٨٩ و الأحاديث المتساوقه معه في ص ٧٨ ـ ٨٩. و لمعرفة المعنى الدقيق للمخالفة و الموافقة في أمثال هذه الروايات أنظر «بحوث في علم الأصول» ج ٧ ص ٢١٥ و مابعده و خاصة الصفحات ٣٣٣ ـ ٣٣٤ و «الرافد في علم الأصول» ص ١٢.

٦٦. «نهج‌البلاغة» الخطبة ١٥٦

٦٧. «الصحيفة السجادية» الدعاء ٤٢.

٦٨. «القرآن‌الكريم و روايات المدرستين» الكتاب الاول ٢٦١ ـ ٢٦٤. «معالم المدرستين» ج ٢ ص ١٣

٦٩. «واژه‌های دخیل در قرآن مجید» ص ٣٥٩

٧٠. «مباحث في علوم القرآن» ص ١٧

٧١. «المهذب في ما وقع في القرآن من المعرّب» للسيوطي. «المعرّب من الكلام الأعجمي».

٧٢. «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ج ٨ ص ٢٧٣.

www.noormags.com